

The Counter-Orientalist Critique

A Critical Review of D. S. Margoliouth's Edition of the Dīwān of Sibṭ Ibn al- Ta'āwīdhī

التحقيق الاستشراقي المضاد
مراجعة نقدية لتحقيق المستشرق مارغليوث
لديوان "سبط ابن التعاودي"

Dr. Mohamed Halfaoui

* University Mustapha Stambouli

Mascara- Algeria

Halfaouimohamed123@gmail.com



الدكتور محمد حلفاوي

* جامعة مصطفى اسطمبولي

معسكر- الجزائر

ABSTRACT

This article critically examines an orientalist study of Arabic literary heritage by analyzing the edition of the *Dīwān* of Sibṭ Ibn al-Taʾāwīdhī produced by the English orientalist Samuel Margoliouth. It seeks to identify instances of bias and prejudice in the treatment of Arabic poetry, which reflects important aspects of Arab cultural identity and Islamic heritage. The study aims to expose potential breaches of scholarly integrity, analyze the motives underlying subjective bias and the distortion of Arab history, and investigate the methods used to marginalize, exclude, or erase Arab literary heritage, particularly poetry. It also seeks to identify methodological shortcomings in the editorial process and draw lessons to help future editors avoid similar errors. Drawing on historical and psychological perspectives, the article adopts a descriptive-analytical approach to examine alleged prejudice against Arabic poetry in general and the poetry of Sibṭ Ibn al-Taʾāwīdhī in particular.

KEYWORDS:

Orientalism; Editing; Manipulation; Sibṭ Ibn al-Taʾāwīdhī; Samuel Margoliouth.

المخلص:

نسعى في هذا المقال إلى دراسة عمل استشرافي يتناول تراثنا الأدبي، من خلال قراءة نقدية لتحقيق المستشرق الإنجليزي صامويل مارجليوث لديوان سبط ابن التعاويذي، للكشف عن مظاهر الانحياز والتعامل في التعامل مع الإنتاج الشعري العربي الذي يعكس جوانب من هويتنا الثقافية ومقوماتنا الإسلامية. وتهدف الدراسة إلى بيان أوجه الإخلال بالأمانة العلمية، وتحليل الدوافع الكامنة وراء تغليب الذاتية والتأثير في كتابة التاريخ العربي، فضلا عن تقصّي أساليب التهميش والإقصاء والمحو التي قد تطلت التراث العربي، والشعر على وجه الخصوص. كما تسعى إلى تحديد أوجه القصور المنهجية في عملية التحقيق، واستخلاص الدروس التي من شأنها تجنب المحققين الوقوع في مثل هذه الاختلالات مستقبلا. وتعتمد الدراسة على المنهجين الوصفي والتحليلي، مستفيدة من المقاربتين التاريخية والنفسية، لفحص مظاهر التعامل على الشعر العربي عموما، وشعر سبط ابن التعاويذي خصوصا.

الكلمات المفتاحية:

الاستشراف؛ التحقيق؛ التلاعب؛ سبط ابن التعاويذي؛ صامويل مارجليوث.

مقدمة¹

إن الاستشراق في عمومه – على الأقل بالنسبة لنا – هو إنتاج معرفة تفيد في عملية الهيمنة على الأمم الشرقية، حيث إنه في سنة 1973 م، حاول الغرب تغيير كلمة الاستشراق التي ترمز إلى الاستعمار واحتلال الشعوب معرفياً، إلى الدراسات الإسلامية أو التاريخية، لذلك فالاستشراق والاستعمار وجهان لعملة واحدة.

ولفهم الطريقة التي يمهّد بها الاستشراق لاستعمار الشعوب وجب دراسة المادة الاستشراقية مع التعرض لنماذج خاصة بذلك، مع العلم أنه ليست كل الدراسات من هذا النوع تصب في الاتجاه الاستعماري، حتى إن هناك من المستشرقين من كان منبؤاً من قومه بسبب إحيائه لعلوم العرب.

وعلى العكس، وتبقى بعض الأسماء من المستشرقين في الخانة السوداء لما فعلوه بالتراث العربي، ولتخاشي ذلك لابد أن تكون هذه المعرفة خالية مما يكن العداء للدين الإسلامي وللتراث العربي، وقد اتجه هؤلاء إلى دراسة علوم الأمة العربية معتمدين في ذلك على الرحلات، والكتب القديمة، وغيرها، وقد كانت عمليات تحقيق المخطوطات

¹ To cite this article:

Halfaoui, Mohamed. "The Counter-Orientalist Critique: A Critical Review of D. S. Margoliouth's Edition of the Dīwān of Sibṭ Ibn al-Ta'āwīdhī." *Ijtihad Journal for Islamic and Arabic Studies*, vol. 3, no. 6, Ijtihad Center for Studies and Training, October 2026, pp. 237–257.

حلفاوي، محمد. "التحقيق الاستشراقي المضاد: مراجعة نقدية لتحقيق المستشرق مارجليوث لديوان سبط ابن التعاودي." *مجلة اجتهاد للدراسات الإسلامية والعربية*، مج. 3، ع. 6، مركز اجتهاد للدراسات والتكوين، بلجيكا، أكتوبر 2026، ص. 237–257.

© This research is published under the (CC BY-NC 4.0) license, which permits anyone to download, read, and use it for free, provided that the original author is credited, any modifications are indicated, and it is not used for commercial purposes.

بادرة من البوادر الأولى التي ساهمت في دراسة التراث العربي. لكن الحقيقة أننا ما كنا نطمح من هؤلاء أن يخرجوا تراثنا للعلن بهذه الكيفيات، هي فقط مساعدات قيمة لهذا الإنتاج التراثي الضخم، وقد أبانت الدراسات العربية اللاحقة قوة مؤرخينا، أدبائنا وعلمائنا، في مواكبة أو مواجهة تراثنا.

ف"دايفيد صامويل مارجليوث"² David Samuel Margoliouth متهم بالتهويل،



وعدم التوثيق في أعماله العلمية، على الرغم من أنه أستاذ اللغة العربية بالجامعة البريطانية، ورئيس دائرة المعارف الإسلامية وصاحب أفكار مسمومة عدائية للإسلام، وما يصعب المسألة أكثر أنه يمتلك ناصية اللغة، أي بإمكانه التلاعب والتحريف. فمن بنات أفكاره أن يجزم بأن الشعر الجاهلي، وضع بعد الاسلام، وليس من الفترة الجاهلية بشيء وهي قضية الشعر الجاهلي، والانتحال التي أثارت ضجة وردود فعل قوية، بالإضافة إلى بعض الأفكار التي أثارت جدلا

كبيراً. لكن ما قصة مارجليوث مع الشعر؟ وهل يكون قد أقحم نظرية الشك في تحقيق المخطوط؟ لن ننسب الأمر إلى منهج الشك، لأن الشك لا ينقص من قيمة العلم شيئاً بل يؤكد ويوضحه، ولا يتعلق بالتعمد وإنما بنسب الأمر إلى التعنت والتعصب.

² جاء في موسوعة الاعلام خير الدين الزركلي أن مارجليوث ولد في سنة 1858م وتوفي سنة 1940م، اشتغل كقس بكنيسة في إنجلترا، ثم التحق بمهنة التعليم، كأستاذ للغة العربية بجامعة أكسفورد بإنجلترا، ثم رئيس دائرة المعارف الإسلامية له الكثير من الأعمال الاستشرافية.

المستشرقون وتحقيق الدواوين الشعرية

يفهم من مصطلح الاستشراق دراسة علوم الشرق وتاريخه وثقافته وتراثه، وقد اهتم المستشرقون اهتماما بالغاً بجميع الدراسات اللغوية الشرقية، والانتاجات الأدبية العربية الشعرية أو النثرية على حد السواء، وقد قاموا بتحقيق دواوين كثيرة، لا زالت معتمدة إلى يومنا هذا، فلا غرابة أن نجد مستشرقاً يرحل من بلده ويكابد الشقاء في سبيل الحصول على تلك المخطوطات، والدواوين العربية القيمة لتحقيقها ونيل علومها متأثرين بها وبمادتها النصية القيمة، فالشعر العربي هو لسان حال العرب يعكس عاداتهم وتقاليدهم ويبرز أفكارهم، بحيث سارع المستشرقون إلى دراسة هذا الشعر، لتحقيق فهم ووعي بهذه الحضارة التي ملئت الدنيا فيما مضى، وقد شملت العملية الاستشرافية تحقيق العديد من الدواوين الشعرية مثل تحقيق ديوان "امرئ القيس" الذي حققه كل من: البارون سلالن الفرنسي مع جوزيف رينو 1837م، وشعر "تأبط شرّاً" الذي حققه السير تشالز ليال الإنجليزي في المجلة الآسيوية 1918م، وديوان "حاتم الطائي" الذي حققه شولتزليزغ الألماني، عام 1897م، وديوان "زهير بن أبي سلى" الذي اهتمى إلى تحقيق أعماله الكونت دي لنديبرج السويدي، وديوان "عبيد بن الأبرص" الذي اشتغل عليه هوميل الألماني 1890م، ثم ديوان "لقيط بن يعمر" الذي انبرى إلى تحقيقه نولدكه الألماني³.

وبهذا يتضح جلياً التحقيقات الكثيفة التي نالت الدواوين الشعرية، وإن كان بعضها قد قوبل بالرفض، فيكفي فقط أن بعض الدواوين في هذه الأزمئة كانت معدومة

³ عفيف عبد الرحمن، الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة 1، 1985م، ص 29-30.

ومجهولة تم إظهارها إلى العلن من طرف هؤلاء المستشرقين، وتحقيق التراث العربي يتطلب جهدا كبيرا وبحوثا معمقة، ويبقى الظاهر ظاهرا، والمبطن مبطنا، يتعلق الأمر فقط بحنكة الدارس كيف ينتقي الجيد من الرديء، أما عن تحقيق مارجليوث لديوان "سبط بن التعاوذي"⁴، فيقال عنه الكثير، حيث لم يقف عند تحقيق هذا الديوان بل كان له إنتاج طويل في هذا المجال "فالمستشرق مارجليوث حقق من جملة ما حقق أنساب السمعاني ومعجم الأدباء لياقوت الحموي وقطعا من الامتاع والمؤانسة للتوحيدي ومشوار الحضارة للتنوخي وترجم تلبس إبليس لابن قيم الجوزي"⁵، فالرجل له باع طويل في الدراسات العربية، أي أنه يتمتع بخبرة في هذا المجال.

إن أصل العملية التحقيقية الموجودة بين أيدينا هي تحقيق لديوان سبط ابن التعاوذي، من طرف المستشرق ديفيد صامويل مارجليوث، الذي اتهم بعدها بعدم التوثيق، رغم أنه معروف عنه براعته وتجربته الكبرى في عملية تحقيق المخطوطات، حيث أن «تحقيق المخطوطات هو الاجتهاد في جعل النصوص المحققة مطابقة لطبيعتها في النشر من حيث الخط واللفظ والمعنى، وبالتالي فالمخطوط المحقق هو الذي صح عنوانه واسم مؤلفه ونسبة الكتاب إليه»⁶، بحيث اعتمد كما يوضح على نسختين موجودتين في مكتبة البودليان Boudliean، إحداهما ناقصة، والأخرى تفتقد إلى الترتيب، لكن كما هو معلوم، أن هناك نسخة ثالثة معلومة، وهي نسخة الصبان التي لم يطلع عليها، فهل فعلا لم يصل إليها المحقق؟ أم أنه تعمد تركها لغرض في نفس المحقق؟

⁴ هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله، شاعر فارسي، ولد سنة 519هـ ببغداد، لقب بالتعاوذي نسبة إلى جده، توفي سنة 583هـ له ديوان شعر، وله كتاب الحجة والحجاب.

⁵ فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الاسلامي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1998، ص 170.

⁶ أمحمد مولاي، مناهج ومتطلبات تحقيق المخطوطات، مجلة الحوار المتوسطي، مجلد9، عدد3، 2019م، ص12.

اكتشف المحقق يوسف السناري الصنيع السيء لمارجليوث بالديوان وقدمه ضمن دراسة موسومة بـ: جناية المستشرق مارجليوث على التراث: ديوان سبط ابن التعاوذي مثالا، وهي حتى الآن أحسن دراسة تناولت ذلك بالتدقيق، وقد وصف العملية برمتها، بالتلاعبات البينة في الديوان من خلال «إسقاطه عمدا بعض المقطوعات والقصائد التي كان من بينها قصيدة في مدح السلطان صلاح الدين الأيوبي، ومقطوعات تحث على الجهاد ضد الصليبيين - حيث تم تحريف كثير من قراءات الديوان وتصنيفه - ثم إهماله القيام بمكملات التحقيق»⁷. ويذهب يوسف السناري إلى أن مارجليوث حينما حقق ديوان سبط ابن التعاوذي اعتمد في ذلك على «نسختين خطيتين في مكتبة البودليان (Boudliean library) بجامعة أكسفورد، الأولى برقم Hunt(467) والثانية برقم Marsh(236)، إحداهما على ترتيب المصنف الذي ذكره في خطته، والثانية على ترتيب القوافي، نسخت سنة 979 هـ، وقد اختار مارجليوث نشر الديوان على النسخة الثانية التي جاءت على ترتيب القوافي»⁸، فيما لم يعتمد مارجليوث على النسخة الأولى لمحمد سرور الصبان الخاصة، وهي النسخة التي نسخت بعد وفاة الشاعر بسنة أي سنة 580 هـ، وقدم مقارنة بين نسخة مارجليوث والصبان وبين بالتفصيل الدقيق خيوط الجناية الأدبية.

وقد أكد الباحث أنه قد سبقه في تبیان أصول هذه الجريمة، خير الدين الزركلي، ومحمد حسن المولى، وقد ذكر الأول أن مارجليوث «له في لغته كتب عن الإسلام والمسلمين لم يكن فيها مخلصا للعلم، على الرغم من توسعه في معرفة المسلمين

⁷ يوسف السناري، جناية المستشرق مارجليوث على التراث، ديوان سبط ابن التعاوذي مثالا، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، مصر، ط1، 2020، ص10.

⁸ المرجع نفسه، ص8.

وآدابهم»⁹، وقد أوصى بإعادة نشر الديوان وتحقيقه على وجهه الصحيح تفاديا لتلك الأغلاط الكبرى مصرحا: «اقتنيت نسخة منه، فظهر لي أن ناشره الأستاذ مارجليوث تعمد حذف كثير من شعره، وملأه أغلاطا وحبذا لو يعاد نشره»¹⁰، وقد انتبه خير الدين الزركلي لذلك، ولكنه لم يقف على تلك الأغلاط فقط، بل أوصى بإعادة تحقيقه، لكن تبقى دراسة السناري هي الأوفى والأقرب بالنسبة لنا.

طبيعة القصائد قراءة في خبايا الإقصاء

كان قد بعث سبط بن التعاوذي إلى صلاح الدين بثلاث قصائد من بغداد يمدحه فيها، وقد قام مارجليوث بتحقيق الديوان وجمع جميع قصائد سبط ابن التعاوذي، ورغم ذلك فقد أسقط القصائد الثلاث، ومن سنن التحقيق أن يتحرى المحقق الأمانة وأن يورد الإنتاج العلمي كما هو، لا أن يخلق مبررات لإدخال رغباته الذاتية في عملية تحقيق المخطوط. وفيما يلي معاينة لتلك القصائد.

من جملة القصائد التي مدح سبط ابن التعاوذي صلاح الدين الأيوبي ثلاثا: اثنتان منها تصوران أحداث الحروب تصويرا مباشرا، فمهنئه في الانتصار على الإفرنجية بروح حماسية كما يدعو في بعض الأحيان إلى القضاء عليهم، ويصوره بطلا من أبطال الاسلام وهي كالتالي:

القصيدة الأولى، تقول في مطلعها:

قَلْبِي فِي حُبِّكَ مَعْمُودٌ وَحَظُّ عَيْنِي مِنْكَ تَسْهِيْدُ
مَا لِدِيُوْنِي فِيكَ مَمْطُوْلَةٌ أَقْضِي وَلَا تُقْضِي الْمَوَاعِيْدُ

⁹ خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم، لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ج6، ط2، 2002م، ص330.

¹⁰ المرجع نفسه، ص260.

مَنْهَلٌ وَصِلَ أَنَا عَنْ وَرْدِهِ مُحَلًّا دَهْرِي مَصْدُودٌ

وكان قد بعث إليه بها سنة 570 هـ، وهي قصيدة حماسية يهنئه فيها على انتصاره في المعركة، بحيث يصف المعركة مع تناثر جثث الصليبيين، وفرارهم من ساحة الوغى، كما تضمن مطلع القصيدة الاستعداد الحربي، والعزيمة عند جيش صلاح الدين الأيوبي، وربما لم يحتمل مارجليوث حينما قرأ القصائد ذلك، ولو شاء لحرفها، ولكنه لم يستطع مما جعله يقصصها من الديوان.

القصيدة الثانية، تقول في مطلعها:

إِنْ كَانَ دَيْنُكَ فِي الصَّبَابَةِ دِينِي فَقِفِ الْمَطِيَّ بِرَمَلَتِي يَبْرِينَ
وَالثِّمَ ثَرَى لَوْ شَارَقَتْ بِي هُضْبَهُ أَوْ دِي الْمَطِيَّ لَثَمْتُهُ بِجُفُونِي

«والقصيدة تقع في واحد وسبعين بيتا، وكان حظ البيت الحماسي فيها أربع أبيات، فقد قدمه فيها قائدا عسكريا شجاعا وبطلا مجاهدا، وفارسا يبذ أقرانه وينتصر عليهم»¹¹، وفي أكثرها يهنئ الناصر صلاح الدين على انتصاره على جيش الإفرنجية كما «ضمن الشاعر قصيدته دعوة قوية لجهاد الأعداء، فحث صلاح الدين على ملاحقتهم، وغزوهم في عقر دارهم، وهدم كنائسهم، وقتل رجالهم، وإقامة المساجد في بلادهم، واستئصال شأنهم»¹²، وهي من أشد القصائد تأثيرا على الإفرنجية.

أما القصيدة الثالثة، فجاء في مطلعها:

يَا صَلاَحَ الدِّينِ خُذْ حِذْرَكَ مِنْ صِلِّ الْعِرَاقِ
فَلَقَدْ وَا فَالِكَ فِي ثَوْبِي بِي عِنَادٍ وَنِفَاقِ

¹¹ مسلم عبيد الرشيد، المدح في شعر سبط ابن التعاودي، دراسة فنية موضوعية، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، 2010م، ص58.

¹² المرجع نفسه، ص59.

لَا يَغُرَّتْكَ مِنْهُ مَنَظِقُ حُلُوِّ الْمَدَاقِ تَحْتَهُ مَا شِئْتَ مِنْ إِفْكٍ وَزُورٍ وَاخْتِلَاقٍ

وتقع هذه القصيدة في أربع وثلاثين بيتا، وحظ الحماسة فيها قليل مقارنة بباقي القصائد، وكنا قد قدمنا القصائد التي مدح فيها سبط ابن التعاويذي صلاح الدين الأيوبي، ولم نعمل إلى شرحها اختصارا للوقت، لكن في أغلبها تشيد ببطولات صلاح الدين الأيوبي على الإفرنجية، وهي قصائد قد يضيّق صدر الصليبيين إذا قرأوها، فهي تتضمن وقعا قويا على نفوسهم.

مبررات واهية في عتبات المحو والاسقاط

قراءة في المبررات الشخصية

يرر مارجليوث عوامل الحذف بأن هذه القصائد تتنافى والأدب العامة؛ أي أن هذه الأبيات خرجت عن الاخلاق والأدب، وأنها تميزت بالفحش، أو اللا-أدب على أساس أنه رجل دين متخلق، لكن هل القصيدة كانت ماجنة أم أن الدعوة الحماسية إلى محاربة الكنائس وجهاد الإفرنجية كانت ضمن ذلك؟ «فمارجليوث قوض النص الشعري وقام بلي عنقه، تطويعا له بما يتفق وقواعد العصر الحديث، ويتماشى مع معطيات الأخلاق التي تتجاهل طبيعة الزمن والبيئة والمكونات التي أنتجت في خضمها تلك النصوص»¹³.

إن الجهود الاستشراقية في هذا المجال عادة ما تتطلب حذرا تاما، لأنها تخبئ السم في العسل، ونادرا ما تجد مستشرق لا يتعصب لدينه، وتراثه، ويتقيد بالذاتية ويتعد عن الموضوعية، كان مثل هذا الصنيع لا يزال غضا طريا، والكشف عنه يستغرق زمنا

¹³ نهى حمدي أحمد، الرواة والمسكوت عنه في الشعر بين العرب والمستشرقين، مجلة سياقات، 2019-12-31، ص132.

حيث أن مارجليوث حقق الديوان سنة 1903، أي أن وسائل الكشف كانت بدائية، صحيح أن هذه الأعمال أيقظت قرائح العرب، وجعلتهم يبحثون في مجالات أخرى تقودهم الغيرة على التراث، وتحفزهم النخوة العربية على ذلك، وربما آمن مارجليوث أنه سيصنع تاريخاً عربياً يوافق ملته واعتقاده، وعليه سعوا إلى محو ذكرى صلاح الدين في الغرب، وبطولاته لأنهم لا يستطيعون هضم ذلك أبداً.

ورغم الجهود الكبرى والأعمال الطويلة في ميدان التاريخ العربي، واللغة العربية إلا أن التعصب لا يفيد في شيء ولا يصنع علماً، وخيانة الأمانة تسيء إلى العلم قبل الأشخاص وربما ظل مارجليوث محط حذر شديد من قبل النقاد، والباحثين. ماذا كان يحدث لو أن مارجليوث أنصف الديوان وأورد القصائد التي تحت على جهاد الصليبيين، وحرق الكنائس ومدح صلاح الدين الأيوبي؟

بطبيعة الحال، سيكون منبوذاً من قومه، لأنه أخرج إليهم قصائد عدائية لدينهم، لكن هل كان عليه أن يتفادى تحقيق الديوان، وبالتالي كي لا يوقع نفسه في ورطة؟ هنا تظهر النفسية المريضة لهذا الرجل، ظناً منه أن تحقيقه ستبنى عليه عملية التحقيق الموالية، أو إن كتابه سيكون الرافد الحقيقي للوصول إلى الديوان، أو أن العرب بهذا الضعف الذي كان سائداً لا يستطيعون أن يخرجوا الديوان على هيئته الحقيقية، نحن هنا لا نتكهن، لكن التعامل الطويل مع بعض الدراسات التي لا تحترم الأمانة العلمية تظهر نواياها إلى العلن، وبالموازاة مع ذلك هناك مستشرقون أنصفوا المباحث الإسلامية، والتاريخ الإسلامي، والحمد لله أن الرجل لم يضيف قصائد أخرى للديوان بغرض تشويه شخصية الشاعر مثلما فعل غيره مع شعراء آخرين.

قراءة في المبررات العامة

إن كان يوسف السناري قد اعتبر أن مارجليوث اعتمد على نسخ ناقصة ولم يعتمد على نسخة الصبان، فإن الأمر لم يكن عن حسن نية، وقد صرح مارجليوث في مقدمة الديوان قائلا إني «جمعت بين النسختين ولم أترك مما فيها إلا ما كان مخالفا لآداب عصرنا، فوضعت في كل بيت ما ظهر لي أنه أصح»¹⁴، أي أنه تناول كل ما وجد في النسختين، ولم يعتمد إلى نسخة الثالثة كانت موجودة في عصره وهي نسخة الصبان، صحيح أن إحدى النسختين كانت ناقصة، لكن القصائد التي مدح بها صلاح الدين الأيوبي كانت موجودة، وبالتالي فإن مبرر عدم إيجاد أو الحصول على القصائد في النسخ المحققة حتى وإن ادعاه مارجليوث فهو مبرر واه، والغريب أن الرجل طلب أن يقرأ الديوان «والمرجو من القارئ الكريم ألا يمعن النظر في الزلات بل يلتفت إلى ما في الشعر من السحر. وكم في الديوان من مدحة رافعة للدر وأجوزة شارحة للصدر ومن أهجية جارحة للأعراض وشكاية مصيبة للأغراض ومرثية مبكية للعيون وقطعة مختلفة الفنون»¹⁵، ومع هذا الأسلوب الجميل الذي يمتلكه مارجليوث، نقول إن الأمر كان سيكون أوفى وأجمل لو أنه أورد ما كان فيه كاملا دون نقصان ولا زيادة.

كما يمكن أن نضيف إلى هذه المبررات العامة الدافع الديني، فتدين مارجليوث بالمسيحية، وإن كان بعض الدارسين اعتبروه يهوديا متعصبا ضد الاسلام، فإن هذه الديانات لا ترتاح لمدح صلاح الدين أو أي قائد إسلامي آخر، فالمطلع على التاريخ يجد أن بدايات الاستشراق دينية محضة، ترافقها نظرة الكنيسة السلبية إلى الاسلام وإن كانت الأبيات قد تضمنت دعوة إلى محاربة الإفرنجية، وهدم الكنائس، فكيف سيواجه هذا القس الكنيسة بإخراجه قصائد حماسية تحريضية إلى الوجود؟ وبطبيعة الحال تكون

¹⁴ د، س، مارجليوث، مرجع سابق، ص 04.

¹⁵ المرجع نفسه، ص 4.

كتاباتهم مفعمة بالتعصب والحقد، وفي جل أديان العالم يعرف عن رجال الدين الإيمان وتوخي الحقيقة، لكن مارجليوث لم يكن من أصحاب الحقيقة، بل كان رجل دين زئبقي يخدم مصالحه، لإرضاء مسؤوليه، وقد تمضي الدنيا بكل جاهها لكن الخروج عن المبادئ لا يغفر لرجل دين، وقد قدم الأستاذ يوسف السناري أسبابا دقيقة لذلك، بعد تفحصه للعينات المحذوفة والتي يستحيل على أي قس كان أن يولمها اهتماما أو يظهرها للعلن وهي: «الحث على الجهاد والدفاع على الأرض والعرض ضد الصليبيين الذين غزو ديار المسلمين آنذاك. ثم وصف الشاعر دين النصارى بالكفر. أما ثالثا مدح السلطان صلاح الدين الأيوبي. ثم رابعا الحث على تحريق الكنائس وبناء المساجد مكانها. أما خامسا فالحث على قتل النصارى، وعدم السماح لهم بارتداء الزنار ولا ضرب النواقيس. أما السادس والأخير ما فعله صلاح الدين في معركته مع الصليبيين»¹⁶، وهي في نظرنا مخاطرة إذا قام هذا القس بتحقيقها وتقديمها إلى المجتمع الغربي الذي تحكمه الكنيسة، فيكفي فقط أن نتبع تاريخ الصليب، والحروب الصليبية التي تكن لصلاح الدين أشد العدا. فبالإضافة إلى الدوافع الدينية هناك دوافع تاريخية وسياسية، وإن كانت الدوافع التاريخية واضحة متعلقة في أغلبها مع نشأة الاستشراق فإن الدوافع السياسية هي الأخرى عنها ما يقال، ويظهر لنا أن هذه الأسباب في غالبيتها سياسية، بتأييد من الحكومات الأجنبية ووزاراتها الخارجية بغرض الاعداد لاستعمار الشعوب دينيا وفكريا.

¹⁶ يوسف السناري، مرجع سابق، ص39.

خبايا الاقصاء، الأفكار المخفية عن العيان

تشويه سمعة الشاعر

أول سؤال لابد أن نطرحه هنا، هو هل خالفت قصائد سبط الآداب والأخلاق العامة؟ ودون أن نجيب نقول: أن المخفي والمسكوت وما يدس في الدراسات الاستشرافية أدهى وأمر، فحين يصرح المستشرق بأنه عمد إلى فعلته بسبب مخالفة الآداب العامة، وسعياً منه إلى التطهير، وحفاظاً على مكارم الأخلاق؛ أي أن الشاعر كان ماجناً أو فاسقاً، وهو بذلك أغفل «وضعية منتج النص، الذي ينتمي بدوره إلى طبقة محافظة متدينة ويحتل في عصره مكانة رفيعة، فسبط ابن التعاوذي يعد من أبرز رجالات عصره الذين يتمتعون بسمعة طيبة، ومكانة رفيعة»¹⁷، وهذا التشويه الشبهي المتخفي وراء المعاني لا هدف له سوى ابتعاد النزهاء من المسلمين عن قراءة مثل هذا النوع من القصائد، وبالتالي الابتعاد عن القصائد التي تحارب دين الإفرنجية.

ويبدو من شعره، ومن دراسة أقامها فوزي شاعر الألوسي أنه من الصعب تحديد صفاته الجسمية، أما الخلقية فمن خلال شعره يتضح أنه «شجاع جريء لا يهاب ولا يخشى من قول الحق لائماً، فنستمع إليه يتقد المظالم التي صبت على الرعية المستضعفة ويطالب الخليفة جهاراً بأن يدفع الأذى عن الناس»¹⁸، وقد أحصى بعض مواقف الشجاعة من خلال الأبيات، ورغم نفسيته القلقة إلا أنه كان ملتزماً، ما مال ميلاً مما جعله «يوصف بجميل الصفات وعلو الأخلاق، فقد مدح أناساً لهم مكانتهم

¹⁷ نهى حمدي أحمد، الرواة والمسكوت عنه في الشعر بين العرب والمستشرقين، مجلة سياقات، 31-12-2019، ص132.

¹⁸ فوزي شاعر الألوسي، سبط ابن التعاوذي حياته وشعره، مطبعة الأزهر بغداد، الطبعة الأولى 1975، ص69.

وسطوتهم وبقي يمدحهم إلى أن رحل إلى دار البقاء»¹⁹، هي أخلاق مسلم طاهر متشبع بالعقيدة الإسلامية فكيف يخرج عن الآداب العامة، وما هي الآداب العامة في نظر المستشرق؟

إنها تلك التي ترفض التواجد الإفرنجي في بلاد المشرق، فالرجل كان في منتهى الذكاء، علما أنه سيأتي يوم تتعرض أعماله للمساءلة التاريخية وللبحث النقدي فقدم مبررات أولية تكاد تكون استباقية حول أن الأبيات المحذوفة تكون مختلفة الآداب، والأخلاق العامة؛ أي خدشا للحياء، لكن سبط ابن التعاويذي لم يستعمل مفردات ساقطة في مدح ناصر الدين صلاح الدين الأيوبي.

إن كان قد أباح لنفسه الحذف من الديوان بداعي الحرص على الآداب، والأخلاق العامة فأى آداب تنافها قصائد تمدح صلاح الدين، فشخصية منتج النص والشهادات التي قدمت حولها أجل وأرفع من التشويه الخفي الذي يدعيه مارجليوث بأنه أورد أبياتا تخالف الآداب العامة، ومن حسن الحظ أن الرجل لم يفسر الديوان ولم يشرحه وإلا كان قد غرق في الأحكام الانطباعية الذاتية، فالمسألة تعود إلى شخصية المستشرق فلا يقبل أن يكون قسا ينشر قصائدا تدعوا إلى الحروب على الصليبية وتظهر عزة الإسلام، وهو التراث الذي أربك معتقدات المستشرقين، حتى إن هناك منهم من أسلم ودخل الدين الإسلامي الحنيف.

ضباع الشعر

المسألة برمتها متعلقة بتبديد الأثر، فالمحو والإسقاط معناه التخلي، والابتعاد والنسيان، وإسقاط ثلاث قصائد كاملة مع حذف أبيات كثيرة من الديوان ليس له إلا

¹⁹ نفسه، ص74.

إشارة واحدة، وهي ضياع الشعر العربي، وبالتالي فإن المستشرقين ساهموا مساهمة بالغة في ضياع جزء كبير من الشعر العربي، والشعر تاريخ العرب ومِرآة عصرهم، وفي نظرنا مثل هذه الإسقاطات بالنسبة للمفكر العربي هي نزع سلاح محارب، مردها الحفاظ على متطلبات البيئة الاستشراقية التي ترفض كل نزعة معادية للفكر الكنيسي، وهو رجل دين أي أنه من أعمدة المحافظين على هذه البيئة. وقد ذكر يوسف السناري أن من أسباب لجوء مارجليوث إلى حذف القصائد هو: نقد الناس له، مع توظيف عامل مشايعة اليهودية، والنصرانية، ومناصرة أجداده القدماء والمتأمل في أعمال مارجليوث قاطبة يجد أنها امتداد للوعي الكنيسي بالإسلام، وأصوله، والتحكم فيه، وفق ما يخدمهم لذلك فإن التراث الذي لا يخدمهم لا بد من إيجاد وسيلة لضياعه، واليوم نحن نسمع عن قصائد، وأعمال أدباء، وكتب وسير ليست موجودة على أرض الواقع، نحن بحاجة ماسة إليها.

مشروع اسقاط الشعر كقناع استعماري

يستحيل فصل الاستشراق عن الاستعمار، وعن راهنية المستعمر، كما أن حركة الاستشراق من أخطر الحركات التي واجهها الدين الإسلامي الحنيف حيث إن هذه «الحركة قامت بأبشع الحملات على الإسلام بدلا من الحملات العسكرية، وهي حملات فكرية وعلمية - كما يدعون - وتعمل في أوساط العلماء والمثقفين والمفكرين، فهي أشد فتكا من الحروب»²⁰، الأمر الذي يقودنا إلى تفسير صنيع مارجليوث بممهدات الفكر الاستعماري، لأن مثل هذه المحاولات التي تنفي تراثنا الأدبي والشعري وعلومنا كشفت

²⁰ شاكر عالم شوق، الاستشراق، أخطر تحد للإسلام، دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ، المجلد الثالث، ديسمبر 2006 م، ص 63.

الغل الخفي للإسلام لرموزه، وقد «قام بها قساوسة، ولاهوتيون بتكليف من الكنيسة ومن وزارات خارجية يدعون الدراسات فيها التزامهم بمناهج البحث العلمية»²¹، لكن لا مناهج علمية ولا سبب آخر غير استعمار الشعوب الإسلامية.

ادعاء حسن الخلق وتزيين صورة المستشرق في نظر القارئ العربي

المستشرقون أمراء في مثل هذه المسائل، وأنت تصادف مستشرقاً تجد أنه أمير في المعاملة، فهو يحافظ على نقل صورة الأوروبي النبيل المتحضر المتخلق إلى العربي الذين يدعون أنه همجي بعيد عن الحضارة، هذا السلوك معلوم إلى يومنا هذا وهو صنيع المؤسسات الشرقية الاستعمارية حتى أن العربي بنهر من ذلك النظام، والمتحضر حتى يخلق عند العربي ثقافة الانهار، فقد «استهوت علوم المسلمين وأخلاقهم وعاداتهم كثير من هؤلاء الوافدين إلى الإسلام، فخشيت الكنيسة الغربية على مستقبلها، فعملت على الحيلولة بين الشباب وبين بلاد الأندلس وجامعاتها»²²، وما بالك لو يقرأ شبابهم أشعاراً لسبط ابن التعاويذي، فالمتأمل في علوم الشرق ومنها الشعر العربي الذي يعتبر مرآة العرب ولسان حالهم، سيقف على مروءة العربي وشهامته وأخلاقه النبيلة، والحركة الاستشراقية التي غدتها الحروب الصليبية آمنت بالبحث عن نقاط الضعف لهذا الشرق ومارجليوث باعتباره قساً لم يختلف عن دين أجداده، فمشروعه معاداة كل ما هو نبيل عند العرب.

²¹ محمد البهي، الإسلام ومواجهة المذاهب الهدامة: مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1981، ص، 30

²² عبد المتعال محمد الجبري، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، مكتبة وهبة، عابدين، القاهرة، دط، دت، ص9.

دعم المد العسكري

بطبيعة الحال ظهر في هذه السنوات المد العسكري الأوروبي نحو الدول العربية بعد سقوط الحماية التركية على بعض الدول العربية، فسماع اسم صلاح الدين الأيوبي له وقع كبير على هذه الشعوب المستعمرة التي تتبع آثار تاريخها، بحيث ظهرت بمقابل ذلك دراسات مناهضة للفكر الاستشراقي الممهد للفكر الاستعماري. «ومن هنا أسسوا لخطاب معادي للخطاب الاستعماري، وذلك عن طريق كشف خباياه في انكار الوجود التاريخي والثقافي والاجتماعي للذات الشرقية، معتمدين حيال ذلك على الذات المقاومة للاستعمار»²³، فالاستشراق مشروع استعماري؛ إذ كيف يحيي قصائد تحت على الجهاد، وكأن الشعر غنيمة حرب ملك المحتل، فالاستشراق والمتعة الاستعمارية وما بعد الاستعمار وحدها تفي بالغرض، والمسألة مسألة قارئ، فالقارئ الشرقي هو قارئ على يد مستشرق بينما العربي هو قارئ على يد عربي.

إن الاستشراق مقدمة للفكر الاستعماري ودراسة تراث أمة والتلاعب به هدفه تغذية القرارات وإضعاف الأمة. وتشتيتها، وبالتالي يسهل استعمارها، وإسقاط القصائد التي تمدح أبطال الاسلام ورموزه، هدفه وضع الثغرات مما يسهل الوصول إلى إنشاء فكر معادي لمعتقداتهم وتشويه تاريخهم، ومن هنا فالخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي، «يأخذ على عاتقه الاضطلاع بتحليل كيفية استمرارية الحقيقة التاريخية للاستعمار الأوروبي في إطار تشكيل العلاقة بين الغرب الاسلامي واللا-غرب»²⁴، وقد تفضح الحداثة والمناهج النقدية الحديثة بعضاً من هذه الدراسات.

²³ زكية عرعار، الخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي عند مصطفى الأشرف، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2022، ص94.

²⁴ المرجع نفسه، ص45.

خاتمة

كما سبق ووضحناه في المقدمة، وجب إعادة النظر في كل ما ألف بجانب من الدقة والتريث. ذلك أن التحقيق العلمي الموضوعي يجب أن يعتمد على جميع النسخ المتاحة، إذ أن مارجليوث لم يعتمد على النسخة الأولى لمحمد سرور الصبان الخاصة، وهي النسخة التي نسخت بعد وفاة الشاعر بسنة أي سنة 580 هـ، وحين المقارنة بين نسخة مارجليوث والصبان يتضح بالتفصيل الدقيق خيوط الجناية الأدبية، بالإضافة إلى ذكر مؤرخي العرب لهذه القصائد التي بعثت إلى صلاح الدين الأيوبي، ولا يمكن نكرانها، إذن فعملية الطمس تكون شبه معدومة، والمحو لا يمكن لدارس إثارته لأنه شبه مستحيل، وعندما يعمد مستشرق مثل مارجليوث إلى ذلك، فالأمر يرتبط بخبايا يجب إثارتها.

مارجليوث عينة من الذين كانوا يعبثون بالتراث، ويكيفونه وفق ما يخدم تاريخهم في زمن غابت فيه التكنولوجيا وكل وسائل الدقة، اليوم لا يمكنك التعامل مع هذه الدراسات بدون دقة، بل يجب التعامل بحذر تام، وإن أمكن لا بد أن يكون هناك إعادة إنتاج لهذا التراث، لأن أصل النية كانت دراسة الاسلام لحماية أنفسهم، والأغلبية من المستشرقين لم ينصفوا التراث رغم أنهم حافظوا على تلك المخطوطات من الضياع، واختصاصه بمنطقة الشرق الأوسط هو تمهيد لدخولها. لذلك لابد من إصدارات نقدية تبين نوعية المستشرقين الذين يجب التعامل معهم وكذا المستشرقين الذين وجب الحذر منهم، فالتشويه أمر مروع يخفي حقائق كبيرة.

لذلك نستنتج بعد قراءة في الخلفيات المعرفية، والاطلاع على القصائد والآليات التي أسقط بها قصائد من الديوان، أنه عبارة عن مشروع استعماري بأسمى معانيه، كيف الثقافة العربية وفق ما يخدم الامبريالية الغربية، من أجل التحكم في الإنسان الشرقي،

وفق ما يخدم توجهاتهم وتطلعاتهم للهيمنة عليه. وإن كان مارجليوث يمثل تقويضاً للخطابات الاستعمارية في أسمى معانيها فالمستشرق رجل متخصص في الشرق لدعم السياسات الاستعمارية، ورغم ذلك ومع ما صنع مارجليوث لتطويع الديوان وفق ما يتناسق وأفكاره، وروح معتقده إلا أنه لم يستطع إخفاء روح الديوان الحماسية التي تثور ضد كل كافر حاقد على الدين، ومهما اختلفت المواضع في الديوان نرى أن ما تبقى من قصائد المدح وغيرها إلا وتشيد ببطولات المسلمين في مقاومة العدو، ومع تحليل ذلك لا نظن أن مارجليوث نجا من انتقاد قومه رغم كل ذلك الصنيع.

المعلوم أن منهج مارجليوث يقوم بالأساس على الشك المنهجي، ليلحق هذه الجريمة بصنيع آخر تحت عنوان محمد ونشأة الاسلام ملأه بالأكاذيب، والضلالات، والافتراءات التي أملت عليها ملته وذاتيته، فهذا القس لا يؤمن على رواية شيء حتى وإن كان بعضها فيه منافع للتراث الشرقي، والباحث العربي مطالب اليوم بالحد من تلك الأعمال. بل نحن مطالبون بتقويم الوعي العربي اتجاه تلك الأعمال الاستشراقية الصعبة، ونبذ هذه الآليات التي لم تراع ذات الكاتب وسياق النص وزمنه، ونوصي مثلما أوصى أصحاب الدراسات السابقة أن يعاد تحقيق ونشر الديوان مع الاعتماد على النسخ الكثيرة، ومحاولة تنقية ما وقع فيه مارجليوث وتنبيه القراء إليه، مع ضرورة تحاشي مثل هذه الأعمال، لأنها بقدر ما هي مفيدة، إلا أنها تفضي إلى تشويش الأفكار وخلق التباس منهجي، لكي لا يكون تراثنا صناعة غربية صرفه.

لائحة المصادر والمراجع

- أمحمد مولاي، مجلة الحوار المتوسطي، مناهج ومتطلبات تحقيق المخطوطات تحقيق المخطوطات، مجلد9، عدد3، ص12-13، 2019-01-05.

- خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم، لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ج6، ط2، 2002.
- زكية عرعار، الخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي عند مصطفى الأشراف، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2022.
- شاكر عالم شوق، الاستشراق، أخطر تحد للإسلام، دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ، المجلد الثالث، ديسمبر 2006 م.
- عبد المتعال محمد الجبري، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، مكتبة وهبة، عابدين، القاهرة، دط، دت.
- عفيف عبد الرحمن، الأدب الجاهلي في أثار الدارسين قديما وحديثا، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة1، 1985.
- فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الاسلامي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1998 .
- فوزي شاكر الألوسي، سبط ابن التعاودي حياته وشعره، مطبعة الأزهر بغداد، الطبعة الأولى 1975.
- محمد البهي، الإسلام ومواجهة المذاهب الهدامة: مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1981.
- مسلم عبيد الرشيد، المدح في شعر سبط ابن التعاودي، دراسة فنية موضوعية، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، 2010.
- نهى حمدي أحمد، الرواة والمسكوت عنه في الشعر بين العرب والمستشرقين، مجلة سياقات، 2019-12-31.
- نهى حمدي أحمد، الرواة والمسكوت عنه في الشعر بين العرب والمستشرقين، مجلة سياقات، 2019-12-31.
- يوسف السناري، جنابة المستشرق مارجليوث على التراث، ديوان سبط ابن التعاودي مثالا، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، مصر، ط1، 2020.